

الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله
أبي المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد
المجيد

يقال في اسم أمه ست الكمال، ويقال إحسان، ولد يوم الجمعة حادي
عشر المحرم، وقيل لتسع بقين من المحرم، سنة أربع وأربعين وخمسمائة؛
وبويح له عند قتل أبيه يوم الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين
وخمسمائة، وعمره يومئذ خمس سنين وعشرون يوما وكان من خبره أنه لما
قتل نصر بن عباس الخليفة الظافر في ليلة الخميس أصبح الوزير عباس
متوجهاً إلى القصر في يوم الخميس على العادة، فلما صار إلى مقطع
الوزارة، وطال جلوسه والخليفة لم يجلس استدعى زمام القصر مفلحاً
وقال له: إن كان لمولانا ما يشغله عنا في هذا اليوم عدنا إليه في الغد،
فمضى الزمام وهو حائر لا يدري ما يعمل وأعلم أخوي الظافر: يوسف،
وجبريل، وكانا رجلين وأحدهما مكتهل، فأخبرهما بالقصة، ولم يكن
عندهما من خروج أخيهما إلى دار نصر بن عباس خبر ولا علماً إلا في
تلك الساعة؛ فلم يشكا حينئذ أنه قتل، وقالا للزمام: هبك اعتذرت
اليوم هل يتم لك هذا مع الزمان؟ فقال: فما تأمراني؟ فقالا: اصدقه
وحاققه. فعاد إليه وقال: ثم سر ألقه إليك بحضور الأمراء الأستاذين.
فقال: ما ثم إلا الجهر، فقال: إن الخليفة خرج البارحة لزيارة ولدك
فلم يعد بغير العادة. فقال: تكذب يا عبد السوء، وإنما أنت مبايع أخويه
يوسف وجبريل اللذين حسداه على الخلافة واغتالاه فاتفقتم على هذا
القول. فقال: معاذ الله. قال: فأين هما؟ فخرجا إليه ومعهما ابن عم لهما
يقال له أبو التقى صالح بن حسن بن (عبد المجيد بن محمد بن
المستنصر)، فقال: حضرا. فقال لهما: أين الخليفة؟ فقال الثلاثة: هو
بحيث يعلم ابنك ناصر الدين، قال: لا، وإنما أنتما قتلتماه حسداً له.
قالا: هذا بهتان منك لأن بيعة أختنا في أعناقنا وهؤلاء الأمراء الحاضرون

يعلمون ذلك، وإننا لفي طاعته بوصية أئينا، فكذبها، وأمر غلمانها فقتلوهم، الثلاثة.

وكان في القصر ألف سيف مجردة، فشوهه أمر قبيح لم ير أشنع منه لما جرى فيه من البغي الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق.

وقال لزمام القصر: أين ابن مولانا؟ فقال: حاضر . قال: قدامي إلى مكانه. فدخل بنفسه إليه، وكان عند جدته لأمه، فحمله على كتفه وأخرجه للناس قبل أن يرفع القتلى، وبويع بالخلافة، ولقب بالفاتر بنصر الله؛ وعمره يومئذ خمس سنين وعشرون يوماً؛ وصار يشاهد القتلى فحصل له فزع واضطراب، وما زال مدة خلافته لم يطب له عيش لأنه كان يصرع كل قليل (١٣٢).

١٣٢ - في مقابلة هذا الوجه ورقة مفردة كتب عليها:

« بخط المصنف في نصف ورقة ملفوفة بهذا المحل: ولما فعل عباس بأولاد الحافظ ما فعل حنقت عليه قلوب الناس وأضمروا العداوة والبغضاء. وكاتب من في القصر من بنات الحافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزيك يستصرخون به، فحشد وخرج من البهنسا يريد القاهرة، وبلغ ذلك عباساً، فخرج في العساكر يوم الخامس عشر من صفر وجعل ابنه ناصر الدين نصراً على القاهرة، فلما خرج قام عليه الجنود وغلقوا أبواب القاهرة ووقع القتال في الشوارع، فأسرع الناس وفتحوا أبواب القاهرة. فلما جاءهم واستدناهم انهمزوا، فلما تحقق عداوة الجنود والأمراء علم أنه لا مقام له بينهم وعزم على قصد الشام واللحاق بنور الدين الشهيد ليستنجده، هذا والرسول تردد بين القصر وبين طلائع وهو يستهبل الأمراء إليه ويبعث إليهم، فلما بلغ ذلك عباساً استحلف

الأمراء أنهم لا يخونونه ولا يخامرون عليه، وأحضر مقدمي العرب من رؤساء رزيق وحزام وسنيس وطلحة ولواتة وحلفهم بالمصحف وبالطلاق على مثل ذلك، واهتم بأمر سفره بخيله وجماله، وكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجنالة كعادة الوزراء بمصر ومائتا بغل للرحلة وأربعمائة جمل لحمل أثقاله، وله بالنجوم يريد أن يخرج في يوم السبت خامس عشر ربيع الأول بطالع أخباره، فما راعه بكرة الجمعة رابع عشره إلا والناس قد لبسوا السلاح وزحفوا إلى داره ورؤوسهم الأمراء الذين استحلفهم بالألأ يخونوه، فأمر فشدت دوابه وأوقفت على باب داره وصارت سدا بينه وبين المصريين بحيث لا يصلون إليه لآزدحام الدروب، فخرج إليهم غلامه عنبر الكبير، وهو زمامهم، وصاح عليهم وسبهم وقال: روحوا إلى بيوتكم وبيتوا الدواب، ومضى الركابية والمكارية والحمالون وبقيت الدواب مهملة فوقع فيها النهب. وكانت الأتراك عند باب النصر والكتاب تنفق فيهم، فبعث إليهم عباس الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ ليحضرهم، وهم ثمانمائة فارس، فركبوا كلهم وخرجوا من باب القاهرة منهزمين عن القتال، وركب المماليك، وهم أكثر من الأتراك، وخرجوا أيضا من باب النصر وعاد أسامة إلى عباس وعرفه ذلك، فاشتغل كل أحد بإخراج أهله، وخرجت خدم عباس وقد نهبت تلك الدواب بأجمعها وخلت الطريق ورجعت عساكر المصريين وأخرجوا عباساً ومن معه وهم في قلة والمصريون في كثرة. فلما خرج عباس من باب النصر أغلق المصريون أبواب القاهرة وعادوا إلى دور عباس وأصحابه فنهبوها، وتجمعت قبائل العربان الذين استحلفهم عباس وقتلوا عباساً خارج باب النصر من ضحى يوم الجمعة المذكور إلى يوم الخميس العشرين منه وسار، وهم يقاتلونه النهار كله فإذا جن الليل اغفلوا حتى ينام - يركبون في مائة فارس ويرفعون أصواتهم بالصياح فيأخذون الخيل ويأسرون الرجال، فلما كان يوم الأحد ثالث عشر صبحهم الفرنج في جمعهم على المويلح فقتلوا عباسا وابنه حسام الملك وأسروا ابنه ناصر الدين وأخذوا خدامه وحرимه

وقتلوا من ظفروا به ، وأسروا نجم الدولة أبا عبدالله محمد بن منقذ، وفر أسامة في طائفة إلى دمشق وهم في أسوأ حال، ودخلوها يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من سنة خمس وأربعين وخمسمائة »

ومن طريف ما وقع في هذا اليوم أن الوزير عباساً لما أراد الدخول إلى المجلس وجد بابه قد قفل من داخل، وكان متولى فتح المجلس وغلقه أستاذ شيخ يقال له أمين الملك، فاحتالوا في الباب حتى فتحوه ودخلوه، فإذا أمين الملك خلف الباب وهو ميت وفي يده المفتاح.

وفي أثناء ذلك حضر الخادم الذي أفلت من نصر إلى القصر وحدثهم بكيفية قتله الظافر، فكثرت النياحة عليه بالقصور ، وظن عباس أن الأمر قد استقام له، فجاء خلاف ما أمل، وأخذ أهل القصور في أعمال الخيلة عليه؛ وكان الأمراء والسودان قد نافروه واستوحشوا منه لما فعله بأولاد الحافظ، وأضمروا له العداوة والبغضاء ، فاختلفت عليه الكلمة ، وهاجت الفتنة، وصار العسكر أحزاباً ولبسوا السلاح، فخرج إليهم عباس في يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول، فكانت بينه وبينهم محاربة انكسروا فيها منه ، وقتل منهم جماعة. هذا وأهل القصر في تدبير العمل عليه، فبعثت عمه الفاتر إلى فارس المسلمين أبي الغارات طلائع بن رزيك، وكان والياً على الأشمونين والبهنسا، بالكتب وفي طيها شعور النساء تستصرخ به على عباس؛ وكتب إليه أيضاً الجليس بن الحباب فامتعض عند وقوفه على الكتب ورؤية شعور النساء، وجمع العربان والأجناد مقطعي البلاد.

وبلغ ذلك عباساً، فخرج من القاهرة بالعساكر في عاشر صفر، وجعل ابنه ناصر بالقاهرة، وأنفذ إلى طلائع بحسين بن أبي الهيجاء، زوج ابنته، ليرده عما عزم عليه . فلما خلا به قال له : تقاتل عباساً وله خمسة

آلاف مملوك؟! قال: أقاتله بنفسه ونفسك. قال: أما الآن فنعم، وصار معه ففت ذلك في عضد عباس لشهرة حسين وشجاعته.

وعندما نزل عباس إلى إطفيح في بكرة يوم الثلاثاء، خامس عشره، لحق أعراب إطفيح بابن رزيك، فوافوه على أبو يوط (١٣٣) فسار بهم ونزل دهشور (١٣٤) فاضطرب عباس ورجع إلى القاهرة، وتفرق عنه الناس إلى طلائع بن رزيك، وصار من أهل البلد في مناكدة. وغلقوا أبواب القاهرة ووقع القتال في الشوارع، فاستظهر عليهم عباس وفتحوا الأبواب وقد تحقق عداوة الأمراء والجنود له.

واتفق أنه مر يوماً فرمي من طاقٍ ببعض الشوارع بهاون، ورمي مرة بقدرٍ مملوءة طعاماً حاراً؛ فقال: ما بقي بعد هذا شيء، وعزم على الفرار فلم يقدر، وغلقت أبواب القاهرة.

واشتغل الناس بهذا الحادث وهو يدبر في الخروج من القاهرة، فأشار عليه بعض خواصه بتحريق القاهرة فأبى وقال: يكفي ما جرى، فلما عدى طلائع بن رزيك إلى صول (١٣٥) عول عباس وولده نصر على المسير من مصر بكل ما يملكه من مال وسلاح وما قدرا عليه من حواصل الدولة - وكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجال، ومائتا بغل رحل، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله - في يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول بعد ما حلف الأمراء ألا يخونوه. وأحضر مقدمي العرب من رزيق وجذام وسنيس وطلحة وجعفر ولواته، وحلفهم.

فلما كان يوم الجمعة ركبوا عليه بكرة وتبعها أسامة بن منقذ وجماعة؛ وبلغ ذلك طلائع فسار ونزل قبالة المقس في عشية نهاره، وخرج الناس إلى المقابر، وبات في عشاري، وأصبح، فأقام إلى يوم الأربعاء تاسع عشره، فركب يريد القصر وقد خرج الأمراء إليه، منهم من قاتله ومنهم

من انضم إليه، فلم يكن غير ساعة حتى انجلى الأمر عن فرار عباس وولده وابن منقذ، فنهب الناس دورهم.

ودخل طلائع إلى القاهرة وشقها بعساكره في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول، وهو لابس ثياباً سوداء، وأعلامه وبنوده كلها سود، وشعور النساء التي أرسلت إليه من القصر على رؤوس الرماح، فكان هذا من الفأل العجيب، فإن الأعلام العباسية السود دخلت القاهرة وأزالت الأعلام العلوية البيض بعد خمس عشرة سنة.

ونزل طلائع بدار المأمون التي كان يسكنها نصر بن عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل، فأعلمه بالحال، فمضى راجلاً من القصر إلى دار نصر بن عباس، واستخرج الظافر والأستاذ الذي كان معه، وغسلها وكفنهما؛ وحمل الظافر في تابوت مغشى الأستاذون والأمراء ومشى طلائع وهو حاف قد شق ثيابه ومعه الناس بأجمعهم حتى وصل إلى القصر، فصلى عليه الخليفة الفائز، ودفن في تربة القصر مع آبائه.

وجلس الفائز بقية النهار وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد والجوهر، وخلع على ولديه، ونعت بالأجل الناصر، سند الإمام، زعيم الأنام، مجير الإسلام، خدن أمير المؤمنين، وخلع على أخيه ونعت بنعوت الصالح قبل الوزارة؛ وخلع على حواشيه. وأجرى في الخلع مجرى الأفضل بالطيلسان المقور، وأنشئ له سجل عظيم نعت فيه بالملك الصالح، ولم يلقب أحد من الوزراء قبله بالملك^(١٣٦)، وذلك يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر.

وكتب في سجله، على طرته، بخط الفائز: « لوزيرنا السيد الأجل الملك الصالح، ناصر الأئمة، كاشف الغمة، أمير الجيوش، سيف الإسلام، غياث الأنام، كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين، أبي

الغارات طلائع بن رزيك الفائزي؛ عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى أبدأً من كلمته، من جلالة القدر، وعظيم الأمر، وفخامة الشان، وعلو المكان، واستيجاب التفضيل، واستحقاق غايات المن الجزيل، ومزية الولاء الذي بعثه على بذل النفس في نصرتنا، ودعاه دون الخلائق إلى القيام بحق مشايعتنا وطاعتنا، مما يبعثنا على التبرع له ببذل كل مصون، والابتداء من ذاتنا بالاقتراح له بكل شيء يسر النفوس ويقر العيون؛ والذي يضمه هذا السجل من تقريره وأوصافه، فالذي تشتمل عليه ضمائنا أضعاف أضعاف؛ ولذلك شرفناه بجميع التدبير والإنالة، ورفعناه إلى أعلى رتب الأصفياء بما جعلناه له من الكفالة، والله تعالى يعضد به دولتنا، ويجوِّط به حوزتنا، ويمده بمواد التوفيق والتأييد، ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحة غاية الاستمرار والتأييد إن شاء الله تعالى».

وكان سجلاً في غاية الطول والكبر، من إنشاء الأجل الموفق أبي الحجاج يوسف بن علي بن الخلال.

ونزل الملك الصالح بالخلع والأمراء وغيرهم من أهل الدولة مشاة في ركابه إلى دار الوزارة، فجلس للهناء، وتقدم الشعراء فأشدوا عدة مدائح ذكروا فيها هذه الحالة والواقعة. وكانوا عدة، منهم عبد الرحيم بن علي البيساني، والقاضي الأجل الرشيد أحمد بن الزبير، والقاضي الجليس عبد العزيز بن الحسين بن الحباب، والقاضي السعيد جلال الملك الأشرف ضياء الدين أبو علي الحسن بن محمد بن محمد بن إسماعيل بن كاسبيويه، وأبو محمد يحيى بن خير، الملقب ديك الكرم الشاعر، وغيرهم.

وأما عباس فإنه سار بمن معه يريد أيلة ليسير منها إلى بلاد الشام، فأرسلت أخت الظافر إلى الفرنج بعسقلان رسلاً على البريد تعلمهم

الحال وتبذل لهم الأموال في الخروج إلى عباس، وأباحتهم جميع ما معه، وأن يبعثوا به إلى القاهرة، فأجابوها إلى ذلك، وخرجوا إليه، فلما أدركوه ثبت لهم ودافعهم عن نفسه، فخذله أصحابه وفروا عنه مع أسامة بن منقذ إلى الشام، فقاتل الفرنج حتى قتل؛ وأسر ابنه نصر فجعل في قفص حديد وحمل إلى القاهرة، فدخل به إلى القصر يوم الاثنين سابع عشرين ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وأخرج منه يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الآخر قتيلاً مقطوع اليد اليمنى، وصلب سحراً على باب زويلة، فكان يوماً عظيماً عند الناس. واستولى الفرنج على جميع ما كان معهم.

ولما سير الفرنج بنصر بن عباس إلى القاهرة أنشد عندما عاين البلد:
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر

وخرج الناس عند قدومه إلى القاهرة ليروه فبالغوا في سبه ولعنه، وبصقوا عليه، حتى دخل القصر وهو في القفص وقتل؛ قتله الجوارى نخساً بالمسال وشفعاً بالنعال وقطعوا لحمه واشتوه وأطعموه إياه حتى مات، ثم خرج وصلب على باب زويلة، وأحرق بعد ذلك.

وتتبع الصالح من كان مع نصر بن عباس في قتل الظافر؛ فقتل قايماز وفتوح الأخرس وابن غالب صبراً بين يديه في جماعة معهم، وثبتت أموره فنعت نفسه بفارس المسلمين نصير الدين، الصالح؛ ومدحه الشعراء بذلك.

وشرع الصالح في الميل على المستخدمين وأخذ أموالهم؛ وتتبع أرباب البيوتات والنعيم والأعيان فسلبهم نعمهم. وقبض على عدة من الأمراء وقتلهم في ثالث عشر ربيع الأول، وعلى عدة من أرباب العمائم، منهم أبو الحسن علي بن سليم بن البواب ناظر الدواوين، وكان عارفاً بالحساب والمنطق والهندسة، مليح الشعر والترسل، جيد الكتابة.

وأخذ يعمل على الأمراء المتقدمين في الدولة ، مثل ناصر الدين ياقوت، صاحب الباب، وكان قد ناب عن الحافظ مرة في مرضة مرضها مدة ثلاثة أشهر وكاد يوليه الوزارة؛ ومثل الأوحى بن تميم، وإلى دمياط وتيس، فإنه كان قد تحرك لما سمع قضية عباس وسار يريد القاهرة ، فسبقه طلائع بن رزيك بيوم، فصار يحقد عليه كونه همّ بأمرٍ ربما نال به الوزارة، غير أنه لم يسعه إلا إعادته إلى ولايته وأضاف إليها الدقهلية والمرتاحية وهو يسر له المكر.

وكان من أمراء الدولة تاج الملوك قايماز، وهو من أكابر الأمراء، وويله ابن غالب؛ فحمل الأجناد عليها حتى قتلا ونهبت دورهما.

ثم إنه قلق من قرب الأوحى منه وأراد إبعاده عنه، فنقله من ولاية دمياط وتيس إلى ولاية سيوط وأخميم؛ فخلت له القاهرة، وأظهر مذهب الإمامية وباع الولايات للأمراء وجعل لكل ولاية سعراً ومدة ستة أشهر فقط؛ فتضرر الناس من كثرة ترداد الولاية عليهم.

وضيق مع ذلك على أهل القصر طمعا في صغر سن الخليفة ، وجعل له مجلساً يحضره أهل الأدب في الليل وطارحهم فيه الشعر، فهرع إليه الناس ودوتوا ما ينظمه من الشعر، وكان ابن الزبير يعينه على إصلاحه وتنميته.

فيها صرف الصالح عن قضاء القضاة أبا المعالي مجلي بن جميع، الفقيه الشافعي، وولى القاضي المفضل أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم في أخريات شعبان.

فيها بلغ التليس ستة دنانير.

فيها مات القاضي المرتضى أبو عبد الله محمد بن الحسين الاطرابلسي،

المعروف بالمنك، وكان قد ولي نظر الدواوين والخزائن ؛ وله تاريخ خلفاء مصر قطع فيه على الحافظ.

ومات ركن الخلافة أبو الفضل جعفر فاتك بن مختار بن حسن بن تمام، أخو الوزير المأمون ابن البطائحي، وصلى عليه الصالح.

وفيها كتب المقتفي لأمر الله العباسي عهداً لنور الدين محمود بن زنكي، صاحب دمشق بولاية مصر والساحل، وبعث إليه بمراكب وتحف وأمره بالمسير إليها لما بلغه قتل الظافر وإقامة الفائز من بعده وهو صغير، وقيل له قد اختلت أحوال الدولة بمصر.

سنة خمسين وخمسة

فيها مضى الأسطول إلى ميناء صور فملكها وقتل من فيها وأخرها وأحرقها، وعاد مظفراً بعدة مراكب فيها حجاج من النصارى وغيرهم، وبعده كبيرة من الأسرى وبغنائم جزيلة.

وفيها خرج علي الصالح الأمير الأوحى بن تميم، والي إخميم وأسيوط، وجمع جمعاً موفوراً، فسير إليه الصالح عدة من العسكر، فكانت بينهما عدة رنائع أنفرت عن قتله الأوحى في يوم الأربعاء سابع عشر رجب.

وفيها قدم الفقيه نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي اليماني الحكمي في شهر ربيع الأول، برسالة قاسم بن فليته أمير الحرمين؛ فأحضر في قاعة الذهب من القصر يوم السلام، وقد جلس الخليفة الفائز وحضر الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك والأمراء، على العادة؛ فأدى الرسالة وأنشد:

الحمد لليس بعد العزم والهمم
حمداً يقيم بها أولست من النعم

لا أجد الحق، عندي للركاب يدٌ
تمنت اللجم فيها رؤية الخطم
قربن بُعد مزار العزم من نظري
حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم
وفدا إلى كعبة المعروف والنعم
فهل درى البيت أني بعد فرقته
ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سراقها
بين النقيضين من عفو وممن نقم
ولإمامة أنوار مقدسة
تجلو البغيضين من ظلم وممن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا
على الخفيين من حكم وممن حكم
وللمكارم أعسلا تعلمنا
مدح الجزيلين من بأس وممن كرم
وللعلا ألسن تشفي محامدها
على الحميدين من فعل وممن شيم
وراية الشرف البذاخ ترفعها
يد الرفيعين: ممن مجد وممن همم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدينا وأهلها
وزيره الصالح الفراج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غائله
إلا يد الصنعيين: السيف والقلم
وجوده أوجد الأيام ما اقترحت
وجوده أعدم الشاكين للعدم

قد ملكته العوالي رق مملكة
تعب أنف الثريا عزة الشمم
أرى مقاماً عظيم الشأن أو همني
في يقظتي أنها من جملة الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أمني
ولا ترقى إلي به رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنولي فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
تري الوزارة فيه وهي باذلة
عند الخلافة نصحاً غير متهم
عواطف علمتنا أن بينهما
قربة من جميل الرأي لا الرحم
خليفة ووزير مدد لهما
ظلاً على مفرق الإسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند فيضها
فما عسى يتعاطى منة الدائم

فكان الصالح يستعيد أبياتها في حال الإنشاد مراراً، والأمراء
والأستاذون يذهبون في الاستحسان كل مذهب، ثم أفيضت عليه خلع
الخليفة المذهبية، ومنح له الصالح خمسمائة دينار، وأخرجت إليه السيدة
الشريفة بنت الحافظ مع الأستاذين خمسمائة دينار أخرى؛ وحمل المال معه
إلى منزله، وأطلقت له من دار الضيافة رسوم جليلة؛ وتهادته أمراء الدولة
إلى منازلهم للولائم.

واستحضره الصالح للمجالسة، ونظمه في سلك أهل المواساة،
وانثالت عليه صلواته، وغمره ببه. وصار يحضر في الليل عنده مع الشيخ
الجليل أبي المعالي ابن الحباب، والشيخ الموفق ابن الخلال، وأبي الفتح
محمود بن قادوس، والمهذب أبي محمد الحسن بن الزبير، وولد الصالح مجد

الإسلام (رزيك) ، وصهره الأجل المظفر الأمين ، سيف الدين حصن المسلمين، ذي الفضائل والمناقب، يمين أمير المؤمنين، أبي عبد الله الحسين بن الأمير فارس الدولة أبي الهيجاء الفائزي الصالحي، وأخيه فارس المسلمين بدر بن رزيك؛ وقريه عز الدين حسام، وضرغام، وعلي ابن الزبد، ويحيى بن الخياط، ورضوان بن جلب راغب، وعلي هوشبات، ومحمد بن شمس الخلافة ، وهؤلاء أهل مجلس الليل.

وأنشده يوماً وهو في القبو من دار الوزارة قصيدة منها:
دعوا كل برقٍ شتمتم غير بارق
يلوح على الفسطاط صادق نشره
وزوروا المقام الصالحي، فكل من
على الأرض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى
فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلاتظفروا بها
فكل امرئ يرجى على قدر قدره

فرمى إليه الخريطة فوجد فيها خمسمائة وخمسين ربيعاً، ومدحه في شعبان بقصيدة فدفع إليه الخريطة ، فإذا فيها ثلاثة وسبعون ديناراً.

ثم لما عزم على الرجوع ودع الخليفة والصالح بن رزيك بقصيدة، فأوسعاه إكراماً وإنعاماً، ورسم أن يكون تسفيره خمسمائة دينار كما كانت وفادته، وبعثت إليه السيدة مثل ذلك؛ وخلع عليه للسفر، ودفع له الصالح مائتا دينار. وكتب له إلى ناصر الدولة والي قوص براءة إردت من القمح وحملها من مال الديوان إلى مكة، وكتب له كتاب إلى محمد بن عمران، صاحب عدن، ببراءته من ثلاثة آلاف دينار وإسقاطها عنه.

وسار في شوال إلى مكة فتسلم القمح من قوص وحمل معه إلى مكة

من مال الديوان . ولما وقف صاحب عدن على الكتاب أبرأه من الثلاثة آلاف دينار وأسقطها عنه، فسير إلى الصالح بقصيدة من عدن يشكره على ذلك؛ فلما وقف عليها قال: قد فرطنا فيه حين تركناه يخرج من عندنا، ولقد كان إمساكه للخدمة والصحبة أولى.

ثم عاد بعد ذلك بمدة، واستقر بعد ذلك من جملة خدام الدولة وخواصها.

فيها مات الفقيه أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجا المخزومي القرشي الأرسوفي الشافعي، صاحب كتاب الذخيرة في الفقه.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

فيها نزع السعر ووقع الغلاء بديار مصر، فلحق الناس منه شدة.

سنة اثنين وخمسين وخمسمائة

فيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج وبين المصريين، فشرع الصالح في النفقة على العساكر وعربان البلاد للغارة على بلاد الفرنج. فأخرج سرية في سابع عشر جمادى الأولى وأتبعها بأخرى في رابع عشر جمادى الآخرة؛ فوصلت الأولى إلى غزة ونهبت أطرافها، ثم سارت إلى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت مظفرة غانمة، ثم ندب سرية ثالثة، فمضت إلى الشريعة^(١٣٧) فأبليت بلاءً حسناً وعادت مؤيدة، وسير المراكب الحربية فانتهت إلى بيروت وأوقعت بمراكب الفرنج وأسرت منهم وغنمت، وسير عسكرياً في البر إلى بلاد الشوبك فعاثوا فيها وغاروا ورجعوا بالغنائم في رجب ومعهم كثير من الأسرى، ثم سير الأسطول إلى عكا فأسروا نحواً من سبعمائة نفس بعد حروب كثيرة، وعاد الأسطول في رمضان. وجهاز سرية فغارت على بلاد الفرنج وعادت بالغنائم في

رمضان، ثم ندب سرية في أول ذي القعدة وأردفها بأخرى في خامسه فوصلت غاراتهم إلى أعمال دمشق وعادوا غانمين.

وفيهما قدم رسول نور الدين محمود صاحب دمشق.

وفيهما كسرت مراكب للفرنج فيها حجاج منهم على ثغر الإسكندرية، فقبض عليهم نائب الثغر وجهزهم.

وفي سلخ ذي الحجة قبض الصالح على الأمير ناصر الدولة ياقوت والي قوص وعلى أولاده واعتقلهم من أجل أنه بلغه عنه أنه كاتب أخت الظافر وقصد القيام على الصالح وأخذ الوزارة، وكان ناصر الدولة في ولاية قوص من أيام عباس، ولما استدعى أهل القصر طلائع من الأشمونين لم يجسر على الحركة حتى كتب إلى ناصر الدولة يعلمه بذلك ويستدعيه ليكون له الأمر، فأعاد جوابه يظهر الزهد في ذلك وأنه تركه من أيام الخليفة عن قدرة، ظناً منه أن طلائع لا يصلح ولا يتم له ما يريد من مقاومة عباس؛ فخاب رجاءه، ولم يزل به الصالح حتى أودعه السجن، ولم يزل به حتى مات فيه في رجب من الآتية.

وفيهما أحضر إلى القاهرة رجل كامل الأعضاء سريع الحركة، طوله من رأسه إلى قدمه أربعة أشبار، وله عدة أولاد؛ فدخل على الصالح حتى رآه.

في هذه السنة زلزلت الشام زلازل عظيمة أخرجت حصن شيزر، وأكثر حماة وبعض كفر طاب وأفامية؛ وزلزلت في حلب وغيرها من البلاد؛ وكانت بدمشق خفيفة لم تخرب شيئاً، ودامت مدةً بأرض الشمال.

وفيهما سقطت دار بخط سوق وردان من مدينة مصر هلك بها جماعة من سكانها، من جملتهم امرأة ترضع ولداً أخرجت من تحت الردم ميتة،

وأخرج الطفل ابنها في ثاني يوم وهو حي، فسلم إلى من ترضعه، وعاش حتى بلغ مبالغ الرجال.

واتفق أيضاً في هذه السنة أن السيد أبا النقاء صالحاً كان يخدم في عمالة الرباع السلطانية بمصر، ومما يجري فيها دار ابن معشر عند فم السد الذي يفتح كل سنة عند كسر الخليج إذا كان وفاء النيل، فإذا كان قرب الوفاء رسم بمرمة هذا الدار، فرمت وأسكنت في موسم الخليج، فيتحصل من أجرتها في يوم وليلة ما يتحصل من أجره سنة كاملة، فرمها في هذه السنة وأسكنها على العادة، وسكن في بيت تحتاني منها، فامتألت جميعها حتى لم يبق فيها ما يسع أحداً، فسقطت وهلك جميع من فيها إلا هو، فإنه أخرج بعد يومين من تحت الردم فيه رمق فبرأ وعاش مدة طويلة، ثم طلع يوماً وهو عجل إلى منزل سكناه بحارة الروم من القاهرة فاندق ساقه في درجة حدث بها خدش يسير فمات منه.

سنة ثلاث وخمسين وخمسة

في المحرم جهز الصالح أربعة آلاف وأمر عليهم شمس الخلافة أبا الأشبال ضرغاماً للغارة على بلاد الفرنج، فساروا في صفر إلى تل العجول (١٣٨) وحاربوا الفرنج في النصف منه، فانهزموا من المسلمين هزيمة قبيحة عليهم، وسير عسكرياً آخر في شعبان، فواقعوا الفرنج على العريش وعادوا ظافرين بعدة غنائم ما بين خيول وأموال.

وفيهما قدم رسول الملك العادل محمود بن زنكي؛ وقدمت رسل الفرنج يسألون في الصلح؛ ورسول صاحب قسطنطينة يسأل إسعافه بمراكب نجدة له من صاحب صقلية.

وفيهما خرجت من القاهرة سرية إلى بيت جبريل وعادت غانمة،

وسار الأسطول في يوم الجمعة ثالث عشري ربيع الآخر فانشى إلى تنيس في الثامن من شعبان وأقلع منها إلى بلاد الفرنج.

وفي سادس عشري ربيع الآخر قدم أسطول الاسكندرية وقد امتلأت أيدي الغزاة بالغنائم. وفي ربيع الآخر سار عسكر إلى وادي موسى فنزل على حصن الوعيرة وحاصره ثمانية أيام ، وتوجه إلى الشوبك وأغار على ما هنالك؛ وأقام أميران على الحصار وعاد بقية العسكر.

وفي التاسع من جمادى الأولى سار عسكر إلى القدس فخرّب وعاد بالغنائم. وورد الخبر بوقعة كانت على طبرية كسر فيها الفرنج وانهموا، فأخذ الصالح في النفقة على طوائف العسكر، وكان جملة ما أنفقه فيها مائة ألف دينار، فلما تكامل تجهيزهم سير خمس شوانٍ في الخامس من شعبان، ودوخت سواحل الشام، وظفرت بمراكب من مراكب الفرنج وعادت بكثير من الغنائم والأسرى في الثاني والعشرين من رمضان، وخرج العسكر في البر وقد ورد الخبر بحركة مملك العريش يريد الغارة على أطراف البلاد. فلما بلغه سير العسكر لم يتحرك ، ورجع العسكر.

وجّهز رسول محمود بن زنكي بجواب رسالته ومعه هدية فيها من الأسلحة وغيرها ما قيمته ثلاثون ألف دينار، ومن العين ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على جهاد الفرنج، وكتب إليه الصالح كتاباً ضمنه قصيدة يحرّضه فيها على قتال الفرنج، فوصلت إليه في سادس عشر من شهر رمضان، فلبس نور الدين خلعة الملك الصالح طلائع، وانقضت السنة في تجهيز العساكر في البر والبحر ومسيرها وعودها بالغنائم الكثيرة والأسارى العديدة، منهم القمص صاحب قبرص ، فأكرمه الصالح وبعث به إلى ملك القسطنطينية. وكثرت الغنائم من الفرنج بالقاهرة حتى امتلأت الأيدي بها.

وقال الصالح في هذه الغزوات عدة قصائد مطوّلة.

وفيها مات القاضي المفضل كافي الكفاة محمود بن القاضي الموفق إسماعيل بن حميد القاضي، المعروف بابن قادوس، في سابع المحرم؛ فحضر الصالح إلى داره بمصر ومشى في جنازته حتى صلى عليه، ومضى إلى تربته عند مسجد الأقدام (١٣٨) بالقرافة، وكان من أمثال المصريين وأعيان كتابهم، مقدماً عند الملوك . وله ديوان شعر.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

في شهر ربيع الأول ، في خامسه، قدم رسول الفرنج بهدية لطلب الهدنة.

وقدم رسول نور الدين يخبر بأنه متوجه نحو بلاد الفرنج، وأشار بإخراج عسكر نحوهم؛ فخرجت سرية إلى غزة، وعاد رسول نور الدين ، وهو الحاجب محمود المسترشدي، وصحبته الأمير عز الدين أبو الفضل غسان بن محمد بن جلب راغب الأمري؛ وكانا قد توجهها إلى نور الدين في السنة الخالية وخرجوا من دمشق في نصف صفر، فندب الصالح العساكر للغارة، وأنفق في ستة آلاف وخمسمائة فارس، فساروا في سادس جمادى الأولى، وتوجه الأسطول في البحر، وذلك أن ملك القسطنطينية أراد غزو بلاد ابن لاون، صاحب أرمينية فبعث يعلم نور الدين بذلك، فكتب نور الدين يستنجد الملك الصالح على الفرنج، فأنجده بذلك. وفي سلخ جمادى الآخرة عاد العسكر غانما.

وفي (هذه السنة) خرج الأمير عز الدين أبو المهند حسام ابن الأمير الأسد جلال الدين فضة، وهو ابن أخت الملك الصالح، على عسكر لقتال طرخان بن سليط بن طريف والي الإسكندرية وقد جمع العربان وغيرهم وخلع طاعة الصالح.

وفيهما بنى الصالح على بليس حصناً من لبن.

فيها توفي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن الفضل بن منصور بن أحمد بن يونس بن عبد الرحمن بن الليث بن المغيرة بن عبد الرحمن بن العلاء بن الحضرمي في شهر رمضان بالإسكندرية. وقد حدث فسمع منه السلفي؛ وهو آخر من حدث عن الحبال. ومولده لست بقين من ربيع الآخر سنة ست وستين وأربعمائة.

وتوفي الفقيه أبو الحسن وحشي بن عبد الغالب العادي السعدي بمنية زفتي؛ وأخذ عن الطرطوشي وغيره.

وتوفي بمصر أبو القاسم عبد السلام بن مختار اللغوي؛ وسمع من بركات وغيره؛ وقرأ على العقبي. وله مدائح في الصالح بن رزيك وكان متصديراً بالجامع العتيق.

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

فيها خرج إسماعيل، المعروف بروق، من القاهرة في ليلة الخميس حادي عشر المحرم، ولحق بأخيه طرخان والي الإسكندرية وقد جمع لحرب الصالح، فخرج إليه المظفر عز الدين حسام والأمير مجد الخلافة أسد الدين ورد على عسكره، ولحقهم المظفر سيف الدين حسين.

وقد برز إسماعيل من الإسكندرية في جموعه وخيم على دمنهور، وتلقب بالملك الهادي؛ فطرقه العسكر، فهرب واختفى بالجيزة، فقبض عليه في سابع عشره. وعاد العسكر في ثالث عشره، فهرب طرخان من معتقله في زابع ربيع الآخر، وظفر به في سادسه، فصلب على باب زويلة، ثم ضربت رقبة إسماعيل في ثامنه، وصلب إلى جانب أخيه.

وكان أبو طرخان قرّانا، فترقى طرخان في أيام الفتن حتى ولاه الصالح الإسكندرية في سنة ثلاث وخمسين . وقال الشعراء في صلبه عدة قصائد.

وفيها مات الخليفة الفائز بنصر الله ليلة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رجب؛ ومولده يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسة، فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وستة أيام، منها مدة خلافته ست سنين وخمسة أشهر وستة عشر يوماً ولم يلتذ بالخلافة ولا رأى فيها خيراً، فإن أباه لما قتل وبكر عباس إلى القصر وفحص عن الخليفة الظافر وقتل أخويه وابن عمه لينفي عن نفسه وابنه التهمة، ودعى إلى القصر واستدعى ابن الظافر هذا وحمله على كتفه وله من العمر نحو الخمس سنين، ووقف به في صحن القاعة وأمر الأمراء فدخلوا عليه، فلما مثلوا بالقاعة قال لهم: هذا ولد مولاكم وقد قتل أبوه وعماه، والواجب إخلاص الطاعة لهذا الطفل، فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صيحة اضطرب منها الطفل وداخله من تلك الصيحة، مع ما شاهده من رؤية عمه والخدام وهم في دمائهم، ما خبل عقله، وبال على كتف عباس، فسيروه إلى أمه؛ وأقام مختلاً يصرع وجدته تكفله.

وركب في الأعياد مغرراً به؛ وخطب عنه قاضي القضاة وهو معه على المنبر. وفتح الخليج في أيامه في الليل واعتذر عن ذلك بأن النيل عدا وقطع الجسر، إلى غير ذلك من التجاوزات.

ثم وزر الصالح بعد عباس واستبد بجميع الأمور وليس له معه أمر ولا نهي، ولا نفوذ كلمة. فدبرت عمه الفائز في قتل الصالح، وفرقت في ذلك نحو خمسين ألف دينار. فبلغ ذلك الصالح، فأمسكها وقتلها بالأستاذين والصقالبه سراً، والفائز في وإدٍ آخر من الاضطراب والاختلال. ونقل كفالته إلى عمته الصغرى، وطيب قلبها، وراسلها.